النهـــر

مصطفى مبارك

كانت هواية النهر ، عندما يصل عندنا ، ان يتلكأ ويتمهل عند المنحنى الذي تضطجع عليه قريتنا الطيبة ذات البيوت الطينية المتلاصقة ، كأنه يستمتع بظلال اشجار النخيـــل العملاقة المعمّرة التي تحفّ به من الجانبين على مد البصر . وطوال رحلته المترفة في الشمال كان يتذوق احاديث اهالي قريتنا البسطاء الطيبين مثلها الذين يحبونه كما يحبهم . وتشهد بذلك الطرق المتعددة المتعرجة التي خلفتها ارجل العائدين من النهر والذاهبين لهطول اليوم. ورغم انه يكاد ان يطوق القرية ويلتف حولها كأفعى سمراء ضخمة الا انه لم يحاول في يوم من الايام ان يعتدي علينا او يقلق امننا . كان بالحق أبانا كما كنا ندعوه . ولكن حب عمّي شيـخ حب الله للنهر كان يختلف عن ايّ حب آخر اعرفه، واذكر انه غضب وثار عندما سمع احاديث تدور في سوق الاربعاء عن ابتداء اعتداءات النهر المتكررة ، وانه هـــدم المتاريس وجرف الخضروات . وقال لاصحاب الاحاديث وهو يشير بيده المعروقة النحيلة تجاه النهر العكر الذي كانت المياه ترقص عنده وتدور حول نفسها في تلك الساعة كأنها خبلت او كأنها ثملى بخمر مجهولة :

« يشهد الله لم يأكل منا جذع نخلة ولا طفلا ... ولا حتى معزة . ولا ابالغ اذا قلت انني استطيـع ان اعبره بفروتي . وانتم اهالي الشعديناب غاضبون عليه لانه لم يجرِ لصق قريتكم ، فتكيلون له الاتهامات وكأني بكم تريدون ان تحولوا مجراه بأيديكم » .

ويقفز على ظهر حماره وهو يواصل حديثه ملتفتاً لهم بين آونة واخرى ، قائلا قبل ان يبتعد ، كأنه لن يأتي بعد ذلك للسوق ابداً :

« كل يوم سوق ترددون كلامكم الفاضي هذا ... فعل ... فعل ... فعل . الا انه لا يستطيـع ان يتحدث ويدافع عن نفسه . حسناً ، سأفعلهـــا انا نيابة عنه » .

ويضرب صدره بمقدمة اصابعه المجموعة :

« ان حديثكم هذا يؤلمني ... اجل يؤلمني هنا » .

ولكن حديثه هو الذي آلمني اكثر .

آلمني هنا ايضا في عقلي ، الذي لم يستطع ان يفسر كيف يحب الانسان النهر هذا الحب، كيف يحبّ الماء والطين ويدافع عنه بمثل هذه الحرارة .

وعندما عدت للقرية بعد انتهاء السوق ساعة احتضار الشمس واغفاءة النخيل العملاق الذي يقف كالحارس الامين لأسراب الفتيات العائدات من النهر بدلو الماء الاخير ، اسرعت لجدتي وسؤالي في عيني ، وجلست قربها واخذت ازودها بأخبار السوق وخيراته ، وانا أدلك لها في قدميها . ثم وضعت سؤالي بعد آهة استحسان لضغطة مرضية على قدميهـــا الكليلتين :

« أصحيح جدتي ان عمي حب الله يستطيع ان يعبر النهر بفروته ؟ »

« ومتى قال هذا ؟ »

« قاله في السوق جدتي . كما قال انه سيضرب اهالي الشعديناب اذا تحدثوا عن النهر بعد الآن . لماذا يفعل ذلك جدتي ؟ لماذا يحب النهر هكذا ؟ قال ايضاً ان النهر لا يجري لهم ، هل هو كذلك جدتي ؟ »

كانت الشمس قد ذبلت ، مخلية السبيل للمزيد من ارتعاشات الشتاء الحزين ؛ وكانت الرياح الباردة الهازلة ، التي تجعل الانسان يتكور تحت الغطاء فيما بعد منتصف الليل ، تستتر خلف ظلام ضبابي . كان الاهتمام قد غزا وجه جدتي الطباشيري الذي كنت اراه بوضوح رغم الظلام . واخرجت السفة الجافة واعادتها للحقة مرة اخرى ، واخذت تحكي لي في صوت ميكانيكي رتيب كهل مثلها :

« في غابر الازمان عندما خيّر ربي وربك ورب الكون النهرَ في ان يختار مجراه ، قال انه يريد ان يجري قربنا لان هذا يقلل له المسافة ؛ ولكن هذا يضطره لان يبتعد عن قرية الشعديناب ولان تقلّ فعاليته لهم. فغضبوا وقاطعوه واحتفروا لهم آباراً يشربون منها ... ان عمك هذا مجنون : لماذا يحادثهم ؟ منذ كنا صغاراً نسمع منهم هـــذا ، وهو بالطبع لا يفعل للنهر شيئاً ولا يقلل من حبه لنا » .

وجذبت اليها قدميها في ملل وهي تتثاءب :

« اخرج العب في الخارج ، اريد ان اصلي ؛ سأدعو لكم وللنهر بدوام العافية » .

وكانت للشتاء في ذلك الحين محاولات غزو فاشلة بدأها منذ اسبوعين ؛ كانت الرياح تهب عند شروق الشمس ولا تعود الا في الليل التالي ؛ الا انه أتى صادقاً هذه المرة ، مما جعل الاطفال وصغار المعز والاغنام الهزيلة والعاطلين من الرجال يحتلون دائماً اسفل اسوار المنازل التي تواجه قرص الشمس . وزاد ذلك بالطبع في عدد الساعات التي امضيتها في دلك قدميّ جدتي . وزاد ذلك بالطبع ايضاً في ذخيرتي بموضوع عمي حب الله ، بحيث لم اجد صعوبة في تفهم موقفه في الفيضان الذي اتى لنا مع احمرار النهر في هدوئه المعتاد عند منحنانا . الا ان الزبد كان يصحبه هذه المرة ، وقد اخذت ألسنة النهر تلعق التروس والتراب الذي يغطي جذور النخيل . وكنا نسمع في اثناء الليل صوت كتل التراب الضخمة التي يلتهمها وتتهاوى في جوفه . وارتفع مستوى الماء الزاحف حتى صار صغار الاطفال والفتيات يحضرون الماء من عند منتصف الطريق الذي كان يؤدي للنهر . ولم يمر ذلك بسلام ومن دون ان تعلق عليه ألسنة اهل الشعديناب :

« ان اباكم النهر اقبل عليكم ولن يحميكم منه شيء » .

لكن عمي الشيخ حب الله لم يغضب بل ضحك وقال لهم :

« حتى لو ابتلعنا فاننا لن نأتي لأراضيكم التي اصبحت نجسة بماء الآبار . انتم تخرفون، ألا يداعب هو ؟ اتظنونه جامداً لا يشعر ؟ سيرجع . لكم أودّ ان يذهب لكم ويدفن آباركم ، لأرى ما ستفعلونه » .

وكانت جدتي تقول :

« ان لون هذا الماء لا يدعو للطمأنينة . ليست هذه عادته . اهل الشعديناب الحاقدون الجاهلون اثاروه ضدنا » .

وكان عمي حب الله يلازم النهر عند انبعاجته ، طول نهاره وليله والناس تراقبه ولا تتكلم ، كأنه لحبه له مسؤول عن امتداده غير العادي وعن شذوذه . حتى جدتي الثرثارة قبل ان اسألها وضعت سبابتها على فمها وذهبت عني . كان الصمت يحتل القرية ، والنبيح يؤلم الكلاب فتركته ، ورفض النخيل العملاق ان يهز رأسه مع الريح . وكان عمي حب الله يرجع كل يوم من مكانه السابق ، وتلتهم المياه آثار قدميه في الرمال ، حتى صار مجلسه محاذيا صف النخيل المشوه الذي كان يعانق بعضه بعضا كأن كل واحدة منه تشفق على الاخرى . وبدأت بعض الامواج المتطفلة الصغيرة تتقدم نحو القرية وترفع رأسها وتحدق

فيها وهي توسوس لبعضها . وعندمـــا امر عمي الشيخ حب الله ان نهجر القرية ونعتصم بالتل خلف قرية الشعديناب ونتركه وحده لا شيء ابداً معه غير ابتسامته ، اطاعه القوم وسرنا في صف طويل نتعثر في الرمال والدموع ، وقد حملنا الاطفال والخفيف والغالي . وكانت جدتي تبكي :

« لا يمكن ان يفعل هذا ابداً . لا يمكن » .

وكانت الرياح المسعورة تلسعنا ، وصوت ارتطام التربة بالماء ، عندما مررنا بقرية الشعديناب الساخرة .

وتموت الريح عند الليل ، وحديث الناس بالتالي يغشاه الموت ، في رقدتنا وتبعثرنا في الرمال الباردة وبكاء الاطفال الصغار وبكاء حشرات الليل الوحيدة وعواء ذئب حائر متطفل لا يدري من الامر شيئاً . هكـــذا حتى الصبح ، حيث رافق الشمس صياح كأنه عشرات الاصوات تستغيث من جهة قرية الشعديناب . وامتطى الرجال منا الطريق ، رغم ان الرمال كانت تمسك ارجلهم . كانت جحافل المياه تطوق قريتهم ، وانقلبت ضحكات استهزائهم استغاثات حيرى ، وقام رجالنا بانقاذهم والعودة بهم ، وقـــد عقل الذهول ألسنتهم وافواههم . كنا نسمع اصوات ارتطام المنازل المنهارة بماء النهر المفاجيء ، كطبل كبير يقرع في غير ما انتظام ، وصوت كتـــل التراب المنتحرة التي كانت تلقي بنفسها في قلب المياه النهمة عندنا .

وعدنا للقرية بعد ان هدأت المياه واخذت الامواج المرهقة في اليوم الثاني تترامى تحت اقدام نخيل الشعديناب كأنما تطلب منه المغفرة . ووجدنا قريتنا كما تركناها . لقـــد رجع الماء من مكان جلوس عمي الشيخ حب الله الذي لم نعرف مكانه بعدها . واخذ البكاء يدور والحديث يدور حول عمي ومكانه ، واقسم احد اهالي الشعديناب انه رآه جالساً على فروته الطافية على سطح الماء وهو يمسك مسبحته بيده ويقود بالاخرى كتائب الامواج التي كانت تتدافع خلفه نحو قريتهم .

لقد كاد النهر ان يخطيء معنا ، بعد ان اغواه اهل الشعديناب ؛ ولكن عمي الشيخ حب الله جلس وانتظره وضحى بنفسه ، وأقنعه بالرجوع وأراه طريق قرية الشعديناب ليذهب لها عله يستطيع ان يغسل قلوب اهلها السوداء الحاقدة . بل انه ركب فروته فوق ظهره ، كما كان يقول دائماً .

وكانت جدتي تبكي في المناحة وهي تردد مرتجفة :

« بنات امك بكن ولا كن عليك المر
وقالن حليله حب الله اخونا الحر
الجواب بليـــع فوق الدقون ينتر
ابو خالد حليله شمش علينا الضل
الجواب بليـــع في لسانه ما كضاب
جربوع الكتاب المن بعيـــد تنهاب
حزنانات عليك اخواتك التومات
وا حيرة ابوك في تدمر الكتبات
زايله ابو خالد . »